فقه اللغة
في الكتب العربية

الدكتور عبده الراجحي
أستاذ العلوم اللغوية
بجامعتي الإسكندرية وبيروت العربية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

فقد نشطت الأبحاث اللغوية في السنوات الأخيرة ، وبدأ عدد من الطلاب يقبل عليها في دراساته العالية ، غير أن هذا النشاط جعل يتخذ مسالك قد تؤدي إلى غير ما ينبغي أن تؤدي إليه من تأصيل للمنهج العربي وتعميقه ؛ ولعل ذلك راجع إلى أسباب ؛ منها أن البحث اللغوي بدأ يركز جهوده على المناهج الحديثة التي طورها علماء اللغات الأخرى ؛ ومنها أن الطلاب لا يصبرون على درس النصوص القديمة ، وكانت النتيجة أن هذا النشاط أخذ يشدد نقده للمنهج العربي وهجومه عليه ، ونحن لا ننزه منهجنا القديم من النقص أو الخطأ ، ولكن « الموضوعية العلمية » تقتضي أولاً درس هذا القديم درساً صحيحا ، يتحرى الدقة والأمانة في نشر ما لم ينشر وفي درس ما تم نشره ، وفي ربط ذلك كله بالحياة العربية والإسلامية بما كان لها من مناهج . ومثل هذا الدرس هو الذي يتيح لنا بعد ذلك أن نرى

المناهج الحديثة رؤية الذين يملكون ما يميزون به بين ما هو خطأ وما هو صواب ، وبين ما هو صالح لهذه اللغة وما هو غير صالح لها .

ثم إن عدداً من الأبحاث الحديثة قد أدى – على غير ما كان ينبغي – إلى غموض المناهج واختلاطها ، وبخاصة تلك الأبحاث التي صدرت تحت عنوان « فقه اللغة ». من أجل ذلك اخترنا هذا البحث وجعلنا موضوعه « فقه اللغة في الكتب العربية » ، لنتخذه وسيلة إلى دراسة « المنهج » العربي في درس اللغـــة في كتب معينة. ولكي لا يتشعب البحث ، ولكي لا يخضع للتعميمات ، فقد قصرناه على كتب ثلاثة ؛ منها كتابان سماهما صاحباهما « بفقه اللغة » وهما كتابا ابن فارس والثعالبي ، أما الثالث فهو كتاب الخصائص لابن جنى . ولما كان الهدف من البحث هو تحديد المصطلحات بما قد يساعد على رفع شيء من هذا الغموض ، فقد تناولنا تاريخ « فقه اللغة » و«علم اللغة» عند الغربيين وعنـــد العرب ، لنصل منه إلى محاولة « فهم » المنهج العربي .

ومع يقيننا أن ما قدمه العرب تحت « فقه اللغة » لا يمت إلى ما يعرف الآن بهذا الاسم ،فقد آثرنا ترك العنوان كما هو،لنؤكد على حقيقة هامة ، وهي أن الربط بين المصطلحات الغربية و « العبارات » العربية التي قد تعني شيئاً آخر – يؤدي إلى مثل مـــا أدى إليه من خلط .

والحق أن المنهج العربي القديم – كما تمثله هذه الكتب الثلاثة – قد تناول اللغة بطريقة لا تبتعد كثيراً عما يقرره الدرس العلمي، ومن

ثم صنفنا المادة اللغوية وحللناها تبعاً لأقسامها التي عرض لها القدماء والتي تأخذ مكانها الآن في الدرس الحديث .

على أننا ينبغي أن نؤكد دائماً أن هذا المنهج القديم هو الذي حفظ لنا العربية هذه القرون الطويلة ، وأن العربية ليست « مجرد » لغة تدرس كما تدرس « اللهجات » أو غيرها من « اللغات » ، وإنما هي لغة تمثل جوهر حياة هذه الأمة ، بارتباطها بالقرآن الكريم ، ومن ثم باستيعابها « للنظم » التي عاش عليها العرب والمسلمون . وهذه الناحية كافية في النظر إلى الدرس العربي نظرة خاصة دون أن يخدعنا بريق من هنا أو بريق من هناك ، وهي حقيقة بتوجيه العزائم المخلصة إلى كل ما يؤصل هذا الدرس ويعمقه ويقويه .

والله نسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه .

وبه وحده التوفيق ؟

عبده الراجحي

بيروت في التاسع من المحـــرم ١٣٩٢ هـ
الثالث والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٧٢ م

الفصل الأول

فقه اللغة وعلم اللغة عند الغربيين

عرفت الدراسات اللغوية في جامعاتنا مصطلح « فقه اللغـــة » ثم عرفت مصلح «علم اللغة» . ولم يسلم استعمال المصطلحين من خلط أدى إلى اضطراب في فهم كل علم وفي تحديد ميدانه ؛ فرأينا من يكتب كتابا في « فقه اللغة » وهو يعني «علم اللغة» [1] مع شيء من التوسع في استعمال هذا المصطلح ؛ إذ يعرض فيه لبحوث تتعلق بحياة اللغة وما يطرأ عليها من تغيرات ، ولبحوث تتعلق بدراسة الأصوات التي تتألف منها اللغة ، ولبحوث تتعلق بدراسة اللغة من حيث دلالتها .. الخ ثم رأينا من يكتب كتاباً في «فقه اللغة» [2] ويقرنه بعنوان توضيحي هو « دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربيـة » ويعرض فيه «للأصوات اللغوية » و«للاشتقاق» و«للأبنية والأوزان» و «معاني الألفاظ» . ثم كتب الدكتور صبحي الصالح كتابه «درسات في فقه اللغة»[3] فعرض فيه « للعربية بين أخواتها السامية » و « خصائص العربية » من « إعراب » ومن « مناسبة حروف العربية لمعانيها » ومن «المناسبة الوضعية وأنواع الاشتقاق » ومن «النحت أو الاشتقاق الكبار» ....الخ . وأخيراً كتب الدكتور إبراهيم السامرائي كتابه « فقه اللغة المقارن» [4] جمع فيه مجموعة من المقالات المتنوعة

---

(١) هو كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة (طبع أول مرة ١٩٤١ ثم توالت طبعاته بعد ذلك وقد اعتمدنا في هذا البحث على الطبعة الخامسة ، لجنة البيان العربي ١٩٦٢) . وقد أشار أيضاً إلى هذا الخلط عنده الدكتور محمود حجازي في كتابه الموجز « علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة » المكتبة الثقافية ، العدد ٢٤٩ ، ص ٢٠

(٢) هو كتاب الأستاذ محمد المبارك « فقه اللغة » ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

(٣) الدكتور صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ، مطبعة جامعة دمشق . ١٩٦

(٤) الدكتور إبراهيم السامرائي : فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٦٨

يشمل بعضها موضوعات عامـــة « كالعربية بين الجمود والتطور والتوليد » و«الثقافة العربية والإقليمية » ، ويشمل بعضهـــا الآخر موضوعات خاصة «كالفعل والنظام الفعلي في العربية » و«النون والميم في اللغة العربية » ...الخ.

وقد أدى ذلك كله إلى لبس غير هيّن لدى الطلاب خاصة، ولدى دارسي اللغة على وجه العموم؛ خاصة أن معظم هؤلاء الكتاب قد سوّى بـين «فقه اللغة» و«علم اللغة» ؛ فالدكتور وافي لا يفرق بينهما تفريقاً واضحاً حتى إنهما يكادان يكونان شيئاً واحداً غير أن « فقه اللغة » عنـــده يختص بالبحوث المتصلة بالعربية وحدها . يقول : « أمـــا بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم «فقه اللغة» . وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث ؛ فإن فقه الشيء هو كل مـا يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من قوانين . فقد قـــال صاحب المصباح : « الفقه فهم الشيء» وقال ابن فارس : « كل علم لشيء فهو فقه » . وقد كنا نود أن نسمي كتابنا هذا باسم « فقه اللغة » لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله في الاستعمال المألوف، فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلقة بفقه العربية وحدها . » [1]

ويقرر الأستاذ محمد المبارك « أن علم اللغة بهـــذا المفهوم الذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في تطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحـــد الاسمين « علم اللغة » أو « فقه اللغة » وكلاهمـــا يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغة .... هذا وإننا باستعمالنا هذه التسمية وإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين نكون قد جارينا قدماءنا الذين استعملوهما كليهما وأصابوا كل الإصابة في ذلك [2]. » ويقرر الدكتور صبحي الصالح أنه «من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ، لأن جُلّ مباحثهما متداخل

---

(١) الدكتور علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ـ مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٢ ص١٣

(٢) محمد المبارك : فقه اللغة ص ٢٦ .

لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً ، وقد سمح هـذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى .... وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من الدراسة اللغوية ، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناها تافهة لا وزن لها .... وإنه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألا يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً (أي فقه اللغة) ، وأن يعمموها على جميع البحوث اللغوية، لأن كل علم لشيء فهو فقه، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تسمى فقهاً ! [1] .»

على أن جمهرة باحثينا الذين اتصلوا « بعلم اللغة » في مناهجه الحديثة يلفتون إلى الفرق الواضح بين « علم اللغة » و« فقه اللغة » [2] .

هناك إذن فريقان ؛ فريق يسوى بين « فقه اللغة » و « علم اللغة » ، وآخر يفرق بينهما ، لكن المشكلة ظلت باقية في قاعات الجامعة وفي الأبحاث اللغوية على العموم؛لأن الفريق الأول اتصل –في الأغلب الأعم – بالمنهج العربي القديم ولم يتصل اتصالاً وثيقاً بالمنهج الحديث الذي طوره الغربيون ، كما أن الفريق الثاني شغل بالمنهج الحديث حتى كاد يسود كل الكتابات التي ظهرت لأصحابه مكتفين بتوجيه النقد للمنهج العربي حتى صار ذلك نغمة محببة لدى الطلاب والباحثين الناشئين . وكلا الاتجاهين ناقص لا جدال ؛ لأنا نؤمن أن درس المنهج اللغوي عند العرب على أساس شامل لم يتم حتى الآن ، ولأن تطبيق المنهج الحديث على العربية — دون درسها هذا الدرس الشامل – فيه قدر غير ضئيل من مجافاة المنهج العلمي .

ولنتقدم الآن في محاولة لمعرفة حدود « فقه اللغة » و « علم اللغة » ،

---

(١) الدكتور صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ٣ – ٥

(٢) انظر كتاب الدكتور محمود السعران : علم اللغة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ص ٣٦٧ والدكتور كمال بشر : دراسات في علم اللغة ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ : القسم الثاني ص ٤٨ ، والدكتور محمود حجازي : علم اللغة ص ٦ .

والطريقة الصحيحة – فيما يبدو لنا – هي أن نتتبع نشأة هذين العلمين على ما يذكره مؤرخو الدرس اللغوي من الغربيين الذين أخـــذ عنهم علماؤنا في العصر الحديث .

١ – درس اليونان القدماء لغتهم، وسار على منهجهم تابعوهم من الرومان. وقدم أرسطو تقسيمه المشهور للكلمة، ولكن عملهم في اللغة كان متأثراً بالمنهج العقلي الذي كان سائداً بينهم ، أي أنه كان عـملاً تجريدياً فلسفياً يقوم على المنطق الأرسطي ، ومن ثم كانت الموضوعات التي تجذب اهتمامهم تدور حول البحث في نشأة اللغة ، والعلاقة بين اللغة والفكر ، والعـــلاقة بين الألفاظ والأشياء .. الخ [١] .

٢ – يحتل المنهج الهندي مكانة ممتازة في تاريخ الدرس اللغوي عند الغربيين فقد توفر الهنود القدماء على درس لغتهم متمثلة في كتابهم المقدس على وجه الخصوص ، ولما كان عملهم يدور حول ضبط نصوصه وتحديد طرائق قراءته سار منهجهم – منذ النشأة – على الطريقة الوصفية التقريرية ، ولا تزال آراء بانيني Panini اللغوي الهندي القديم مقبولة لدى اللغويين الغربيين المحدثين ، حتى إن بعض المصطلحات الفنية التي وضعها لعدد من الظواهر اللغوية لا يزال مستعملاً حتى الآن [٢] .

٣ – يقرر اللغويون أن أول منهج يمكن وصفه بأنه منهج في « فقه اللغة» هو ذلك الذي اصطنعته مدرسة الإسكندرية القديمة في القرن الثالث قبـــل الميلاد ؛ فقد كان عملها منصباً على شرح نصوص القصائد اليونانية القديمة ، وتفسير مفرداتها ، ومن ثم كثرت شروحهم على أشعار هوميروس وسواه من الشعراء . ومعنى ذلك أن اللغويين في مدرسة الإسكندرية كانوا يركزون

---

(1) Jespersen , Otto : Language; its nature, Development and Origin - London 1964 p. 20 .

(2) Ibid; p. 20.

عملهم على إعداد النصوص القديمة وشروحهـــا حتى تكون مفهومة لدى عامة الدارسين [1] .

٤ – في القرون الوسطى وحتى القرن التاسع عشر ظلت دراسة اللغـــة منصبة على اللغتين اليونانية واللاتينية ، وكانت دراسة اللاتينيـــة على وجه الخصوص وسيلة لكسب الاحترام وسط المجتمع ؛ إذ كان كل دارس لها يتطلع إلى الوصول إلى مرتبة شيشرون . وبعد اختراع الطباعة ازدادت الرغبـة في تعلم اللغات الأجنبية وبخاصة اللغة العبرية التي كان الناس يرون أنها لغة الجنة وأنها أصل اللغات جميعا . وقـد كانت دراسة اللاتينية ذات تأثير واضح على منهج « فقه اللغة » بعد ذلك ، لأنها حددت المنهج باعتباره دراسة للغـــة « مكتوبة » وليس دراسة للغة « منطوقة » . ولعل أول دراسة مقارنةهي تلك التي قدمها د. ينش D. Jenisch حين أعلنت الأكاديمية الألمانية عـــن جائزة لمن يكتب بحثاً عن أحسن وسيلة في التعبير اللغوي ؛ فكسبالجائزة، وأصدر سنة ١٧٩٦ كتابه « مقارنة وتقديرفلسفيان نقديان لأربـع عشرة لغة أوربية قديمة وحديثة ».[2]

«Philosopisch- kritisch Vergleichung und Würdigung von vierzehn ältern und neuern Sprachen Europas . »

٥ – ثم كانت المرحلة الهامة التي تحدد تطور الدراسة اللغويةفي الغرب هي تلك التي تبدأ بكشف اللغة السنسكريتية ؛ لغة الهند القديمـــة ، ففي سنة ١٧٨٦ أعلن السير وليم جونز Sir W. Jones ، الذي كان يعمـــل قاضياً في المحكمة العليا بالبنغال ، أن السنسكريتية واليونانية واللاتينية تنتسب إلىلغة واحدة . وكان قد سبقه إلى هـــذا الكشف الأب الفرنسي كوردو

---

(1) De Saussure,Ferdinand : Course in general linguistics,translated by Wade Baskin, 1964 pp. 1-2 .

(2) Jespersen : Language, pp. 12-13 .

Père Caston Laurent Coerdoux الذي أعلن سنة ١٧٦٧عن الصلة بين هذه اللغات، ولكن عمله لم ينشر إلا بعد عشرين عاماً [١] .

٦ – وجه إعلان جونز اهتمام اللغويين إلى الدراسة المقارنة ، وإلى إنزال اللغة اللاتينية من مرتبتها العالية ، وإلى التقسيم السلالي للغات ، ويعود الفضل في تطوير هذه الدراسة إلى علماء المدرسة الألمانية وإلى العـــالم الدانمركي راسموس راسك Rasmus Rask ؛ فكتب فريدريك فون شليجل Friedrich Von Schlegel الذي يعتبر أول من دعـا إلى « النحو المقارن » كتابه الذي أصدره سنة ١٨٠٨ بعنوان «عن اللغة والمعرفة عند الهنود »

« Über die Sprache und Weisbet der Indier .»

وفي سنة ١٨١٦ أصدر فرانز پوپ Franz Popp كتابه الهام الذي يحدد ميلاد «فقه اللغة المقارن» بعنوان: «عن نظام التصريف في اللغة السنسكريتية مقارنا بكل من اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية» .

« Über das Conjugationssystem der Sanskritsprache in Vergleichung mit jenem der griechischen , lateinischen , persischen und germanischen Sprache . »

ثم أصدر سنة ١٨٣٣ كتابه عن « النحو المقارن للسنسكريتية والسندية والأرمينية واليونانية واللاتينية واللتوانية والسلافية القديمة والقوطية والألمانية.»

« Vergleichende Grammatik des Sanskrit , Send , Armenischen , Griechischen, Lateinischen , Litauischen , Altslavishen , Gotischen und Deutschen . »

وقد ظلت كتابات پوپ مسيطرة على الدراسة اللغوية في الغرب حتى النصف الثاني من القرن التـاسع عشر حين ظهر كتاب شليخر August Schleicher سنة ١٨٦١ «تركيب النحو المقارن في اللغات الهندية الجرمانية » :

« Compendium der vergleichender Grammatik der indogermanichen Sprachen . »

---

(1) Enc. Americana (Language) .

وفي سنة ١٨١٨ أصدر اللغوي الدانمركي راسك كتابه :

« Undersegelse om det gamle nordiske eller islandske sprogs oprindelse . »

الذي نشر باللغة الدانمراكية ، والذي حاول فيه أن يصل إلى الأصول الأولى للغة الأيسلندية القديمة عن طريق المقارنة بعدد كبير من اللغات الهندية الأوربية . ويرى يسبرسن أن هذا الكتاب يعتبر أهم خطوة نحو دراسة اللغة دراسة علمية وإن كان قد صدر بعد كتاب بوپ بسنتين .

ثم أصدر جريم Jacob Grimm سنة ١٨١٩ الجزء الأول من كتابه عن « النحو الألماني » « Deutsche Grammatik » الذي يعتبر مرحلة واضحة نحو « النحو التاريخي » وقد عدل جريم هذا الجزء سنة ١٨٢٢ مضيفاً إليه تغير الأصوات بين اللغات التي قارن بينها فيما عرف بعد ذلك «بقانون جريم»، ولكن أهمية جريم تأتي من أنه وسع دائرة البحث في اللغة ؛ إذ قرر أن النصوص الأدبية المكتوبة لا تشكل إلا جزءاً صغيراً من اللغة، ومن ثم انطلق إلى دراسة اللهجات والآداب الشعبية بهدف الوصول إلى فهم الحياة الثقافية للأمة .

كان لبوپ وجريم تأثير كبير على من عاصرهما وتبعهما من دارسي اللغة واستمرت المدرسة الألمانية تطور « النحو المقارن » و « النحو التاريخي » وتؤسس « دراسة تاريخ الكلمة » ، وظهر عدد من أعلام اللغة الكبار من أمثال پوت August Friedrich Pott وماكس مولر Max Müller وكورتيوس Jeorg Curtius وشليخر وغيرهم ، ثم ظهرت سنة ١٨٧٠ مجموعة « النحويين الجدد neogrammarians » التي كانت تضم فيرنر KarlVerner وهيرمان پاول Herman Paul وبروجمان Brugmann وغيرهم .

والظاهرة الواضحة في هذه الفترة من القرن التاسع عشر ، والتي شكلت حدود دراسة « فقه اللغة » وأدت بعد ذلك إلى التمييز بينه وبين « علم اللغة »

أن دراسة اللغة السنسكريتية كانت أساس البحث اللغوي ، وكان دارس اللغة يلجأ في شرحه لأية ظاهرة لغوية أوروبية إلى السنسكريتية دائما ، وقد قال ماكس مولر : « إن السنسكريتية هي الأساس الوحيد لفقه اللغة المقارن وسوف تبقى المرشد الوحيد الصحيح لهذا العلم ، وعالم فقه اللغة المقارن الذي لا يعرف السنسكريتية ، شأنه شأن عـــالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات [1] ».

وسيطرة السنسكريتية على ميدان الدراسة اللغوية في هذه الفترة أدت – في رأى اللغويين الخالفين – إلى انحراف دراسة اللغة عن طريقها الصحيح إذ يقول إليس Ellis – وهو من جيل تال لمولر : «في أيامنا هذه جاء كشف السنسكريتية ، وبدأ فقه اللغة ، ولكنه – للأسف – بدأ من النهاية غير الصحيحة ، وذلك أن البدء بالسنسكريتية كان كأنه وصل لظواهر الحياة بشيء ميت ، كما أنه من الخطأ بدء دراسة علم الحيوان بدراسة علم الحفريات أي بدء دراسة علاقـات الحياة بعظام الموتى . » [2]

هذه هي المعالم الرئيسية لتطور الدرس اللغوي عند الغربيين [3] في القرن التاسع عشر ، ومنها يتبين لنا ما يلي :

١ – أن تأريخ الغربيين للدرس اللغوي كان مقصوراً على مجهـــودات اللغويين الذين ينتمون إلى اللغات الهندية الأوربيـــة ، أي أنهم لم يتعرضوا لدراسة اللغة عند العرب ، وذلك أمر مفهوم ، غير أنه ينتج عنه الخطأ الواضح في ربط الدرس اللغوي العربي بالدرس الغربي ، وأوضح منه خطأ أن نسلك عمل

---

(1) Jespersen : Language, p. 67 .
(2) Ibid p. 67

(٣) للتوسع في تاريخ الدراسة اللغوية عند الغربيين انظر :

a - Jespersen : Language
b - Bloomfield, Leonard : Language, London 1950 .

ـ الدكتور محمود السعران : علم اللغة .

العرب في حدود القرون الوسطى على ما يرتب الغربيون . وإذا كان تاريخ الدرس اللغوي قد اتخذ هذا الطريق الذي بيناه فقد كان له طريق آخر مخالف عند العرب .

٢ – أن عمل اللغويين الغربيين قبل اكتشاف السنسكريتية كان منصباً على اللغتين اليونانية واللاتينية أي أن ميدانه كان اللغة «المكتوبة» وليس اللغة «المنطوقة» ، كما أن هدفه كان هدفاً تعليميا .

٣ – أن كشف اللغة السنسكريتية أدى إلى نشأة ما يعرف «بفقه اللغة» بحدوده المعروفة الآن ؛ من درس للنصوص القديمة في أشكالها المكتوبة ، ومن اتخاذ اللغة وسيلة لدراسة الثقافة على العموم .

٤ –أن السنسكريتية أدت إلى تصنيف اللغات تصنيفا سلاليا ، مع التأثر الواضح بما ساد العصر من نظريات دارون .

٥ – أن الدرس اللغوي كان مهتما بالمقارنة بين اللغات التي تنتمي إلى العائلة الهندية الأوربية ، كما كان مهتما بإعادة تشكيل اللغات القديمة ، وإن كان هذا قد أدى إلى نشأة « فقه اللغة المقارن » . على أن الدراسة المقارنة قد أدت في الوقت نفسه إلى نتائج تجريديه لا تنطبق على كل اللغات المندرجة تحت عائلة واحدة ، حتى إن بوپ نبه تلاميذه على ضرورة إفراد أبحاث خاصة بكل لغة على حدة .

٦ – أن الدراسة المقارنة وجهت الاهتمام إلى درس تاريخ الكلمة « Etymology » [١] الذي أدى فيما بعد إلى تحديد « الدراسة التاريخية »

---

(١) ترجمها الدكتور السعران « بالاشتقاق » وترجمها الدكتور كمال بشير « بعلم تاريخ الكلمات » وهو يتفق مع ما تورده التعريفات المختلفة لهذه الكلمة عند الغربيين ، انظر :

الدكتور محمود السعران : علم اللغة ، ص ٣٤٨

الدكتور كمال بشر : دراسات في علم اللغة ، القسم الأول، ص٣٨

The Enc. Americana : (Language) .

٧ – أن عمل اللغويين في هذه المرحلة كان – على أية حال – مقصوراً – في الأغلب الأعم – على **اللغات القديمة الميتة** ، ومن ثم كان اهتمامهم **بالحروف** أكثر من اهتمامهم **بالأصوات** ، وإذا كان بعض اللغويين قد نادى وقتئذ بأن اللغات « **كائنات طبيعية** » فإن المنهج في درس اللغة لم يكن مبنياً على أساس المنهج الطبيعي .

* * *

كان لأعمال بوپ وراسك وجريم تأثير كبير على من خلفهم من باحثي اللغة في ألمانيا وفي الأقطار الأوربية الأخرى ، وقد مهدت لتطوير الدرس اللغوي حيث بدأ التمييز بين « فقه اللغة » و « علم اللغة » . نعم؛ لقد كان راسك عالماً في « فقه الأيسلندية » ، وكان بوپ عالماً في « فقه السنسكريتية » وكان جريم عالماً في « فقه الجرمانية » ، ولكنهم كانوا يشعرون شعوراً واضحاً بالميل نحو تحرير علم اللغة ؛ فقد بدأوا ينادون بأن اللغة « موضوع طبيعي » فقال راسك : « اللغة موضوع طبيعي ودراستها تشبه التاريخ الطبيعي » ، وقال بوپ : « ينبغي أن ننظر إلى اللغات على أنها أجسام طبيعية عضوية ، تتكون وفقاً لقوانين محدودة ، وتتطور وفقاً لمبدأ داخلي للحياة ، ثم تموت حين لا تكون قادرة على فهم نفسها (!) » ولكنهم مع ذلك ظلوا « فقهاء لغة » ولم يصبحوا « علماء لغة » .

غير أن آراءهم عن أن « اللغة موضوع طبيعي » قد أثرت تأثيراً كبيراً على تلاميذهم وبخاصة على أولئك الذين عرفوا « بالنحويين الجدد » ، إذ رأي هؤلاء أنهم لم يكتشفوا منهجاً جديداً في درس اللغة فحسب ، بل رأوا أن موضوع دراستهم مختلف عن موضوع « فقه اللغة » ، فبينما كان ينظر « فقيه اللغة » إلى اللغة باعتبارها **جزءاً من ثقافة أمة** نظر إليه « اللغوي » باعتبارها « موضوعاً طبيعياً » قائماً بذاته ، وينبغي أن تكون له دراسته الخاصة .

وحين قسم الفلاسفة وعلماء مناهج البحث كل العلوم إلى « علوم عقلية » و « علوم طبيعية » أدرج اللغويون علمهم تحت « العلوم الطبيعية »[1] .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأ «علم اللغة» يأخذ حدوده الواضحة ، وهنا تبرز أسماء ثلاثة من اللغويين الكبار هم فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure في أوروبا و بلومفيلد Leonard Bloomfield وسابير Edward Sapir في أمريكا ، على خلاف بينهم في التأثر بالمناهج العلمية الأخرى التي كانت سائدة آنذاك .

وقد ظهر تحديد « علم اللغة » حين أعلن دي سوسير أن « موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها »[2] .

« The true and unique object of linguistics is language studied in and for itself . »

كانت هذه هي النتيجة التي ختم بها دي سوسير محاضراته ، ومنها يتضح أن « علم اللغة » لا يدرس « لغة معينة » وإنما يشمل كل ظواهر الكلام الإنساني ، سواء كان أصحابه متحضرين أم بدائيين ، وسواء كان ذلك في فترات قديمة أم حديثة[3] . كما ميز « علم اللغة » عن « فقه اللغة » حين أكد أن « علم اللغة » يدرس اللغة « من أجل ذاتها » ، أي أنه لا يدرسها باعتبارها وسيلة لغاية أخرى كدراسة الثقافة أو الأدب في « فقه اللغة » .

وقد بدأ « علم اللغة » يتخذ اسم « العلم Science » باعتبار أن اللغة

---

(1) Jespersen : Language , pp. 65-66 ,

ونحب أن نشير هنا إلى الكلمة التي قالها فندريس تعليقاً على الربط بين علم اللغة والعلوم الطبيعية وبخاصة في مجال البحث عن أصول اللغات الأولى ، يقول : « وما أغرى العقول بالبحث عن الصور البدائية للغة إلا المقارنة التي كانت تقام بين علم اللغة والعلوم الطبيعية ، من جغرافية ونبات وحيوان . وقد جرت هذه المقارنة غير الصحيحة إلى أخطاء مرذولة ، فإذا أريد إيجاد نوع معادل للغة وجب البحث عنه على الأصح في التاريخ الاجتماعي » . اللغة ص ٤١

(2) De Saussure : Course in general linguistics, p. 232 .

(3) Ibid ; p. 6.

« مادة محسوسة » تدرس « كما هي » وليس « كما ينبغي أن تكون » ، ومن ثم ترك اللغويون كثيراً من الموضوعات التي كانت تجذب اللغويين القدماء من نحو البحث في « نشأة اللغة » وفي « أفضلية لغة على أخرى » وفي « أصول اللغة الأم » . الخ ، لأن « العلم » يقتضي توافر « مادة » صالحة للبحث حتى يمكن الوصول إلى « القوانين » التي يصل إليها كل من ينهج النهج « العلمي » .

ولقد رأى اللغويون أن « علمهم » يتطلب الاستعانة بعدد من العلوم كالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع العام وعلم الأجناس البشرية وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح ، ولكنهم نبهوا على أن الاستعانة بهذه العلوم لا ينبغي أن يؤدي إلى سيطرة مناهجها على « علم اللغة » ، بل لا بد من درس اللغة داخل « علم اللغة » نفسه ووفقاً للقوانين التي يصل إليها « اللغويون » من استقصاء « المادة اللغوية » .

وإذا كان « اللغويون » يتفقون على أن موضوع « علم اللغة » هو « اللغة »، وأنه يُدرس على أساس المنهج « العلمي » « الموضوعي » ، فإنهم يختلفون بعد ذلك في مسائل كثيرة ، ونحن نلفت من الآن إلى هذا الاختلاف في طريق درسنا لمنهج العرب في درس اللغة .

ودراسة اللغة تتدرج — عند أغلبهم — على مستويات أربعة ؛ صوتية ، وصرفية ، ونحوية، ودلالية . أما علم الأصوات فهو يدرس أصوات اللغة من جوانب كثيرة ، فإن كان يدرسها دون النظر إلى وظائفها وقيمها فإنهم يطلقون عليه مصطلح « Phonetics » وأما إن كان يدرسها من حيث وظائفها في اللغة فإنهم يطلقون عليه « Phonology » الذي ترجم إلى علم الأصوات الوظيفي أو علم الأصوات التنظيمي .

أما الصرف فيدرس الوحدات الصرفية والصيغ اللغوية ، وهو ما يعرف عندهم بمصطلح « Morphology » .